وساطة الشّعر في التّسامح والمثاقفة
القصيدة الجاهليّة مثالاً

أ.د. كاظم حمد محراث / كلية التربية / جامعة واسط

يحتاج الإنسان لأخيه الآخر تحقيقا لذاته و إشباعا لنزواته، و لهذا اجتمع مع غيره، فشكّلوا عشائر و قبائل ثم أسسوا مجتمعات، وظهرت فيها خصال كثيرة و تفشت عقليات مختلفة اجتمعت في بناء مجتمع إنساني ساده الأمن و التسامح تارة، والعنف والإقصاء تارات أخر.

والتسامح لغة اسم مصدر مشتق من الفعل تسامح ، الذي يفيد التساهل والموافقة وإبداء اللين . والتنازل عن الشيء و التساهل في أمره، والعرب تقول (اسمح يسمح لك) (1).

واصطلاحا هو استعداد المرء لان يترك للأخر حرية التعبير عن رأيه ولو خالفه الرأي(2). و(المسامحة ترك ما يجب تنزهاً) (3)فالتسامح إذن دعوة إلى الحوار والإنصات وتدبير الاختلاف وقبول الأخر.

والتسامح بهذه المعاني نقيض العنف والتطرف والعنصرية والتشدد وهي سلوكيات تشيع الخوف والقلق وتزرع الفتنة والتنافر مما يؤدي إلى إحداث قطيعة وعزلة بين مكونات المجتمع الواحد .

في هذه الدراسة نتساءل:هل الشعر هو الحوار الحضاري الأمثل حول التعايش السلمي وبث روح التسامح بين الناس ؟ يجيبنا أحد المشاركين في ندوة العقل العربي يحاور الآخر شعرا(4) (إنّ الشعر هو الأسلوب الإبداعي الأمثل للتعبير عن الجانب الإنساني، ولنا في تاريخنا العربي الإسلامي مقامات شعرية كبيرة عبّرت عن نفسها من خلال الشعر) لذا يمكننا القول الآن أن إنتاج أبحاث ورسائل ماجستير وأطاريح دكتوراه تتناول بالنقد والتقصي والتحليل موقف الشاعر العربي عبر أزمان شعرنا من قضايا التسامح والصفح والعفو عند

المقدرة والتعايش السلمي الاجتماعي من شأنه أن يكون جديدا في ثقافتنا العربية، إذ يحاول هذا التناول الوقوف على مدى قدرة توظيف الشعر من أجل إيجاد علاقة اتصال بين ممارسات أبناء الأمة بعضنا مع بعضنا الآخر، بوصفه أسلوبا ربما يصلح ما أفسدته بعض الممارسات السياسية، ذلك لأن الشعر في حد ذاته يعد رسالة إنسانية، ووسيلة من وسائل الحوار بين ثقافتنا في الوطن الواحد، ورسالة إنسانية تربط بين الشعوب بروابط المودة والسلام، بل إن هناك من يذهب إلى عدّ الشعر المناخ الحيوي لفكرة حوار الثقافات والحضارات، أو كما يرى الشاعر فاروق شوشة إن الشعر في أعمق مكوناته تواصل إنساني حميم، ووتر يهتزّ للمعاني التي ينبض بها الوجدان الإنساني بعيدا عن قضايا العنصرية والتعصب؛ الدين واللون، مخترقا حاجز اللغة التي يسكنها الشعر ويفيض عنها، وهي حالة من الإبداع التي تجسدها لنا غنائيات طاغور، وانطلاقات المتنبي، وبكائيات لوركا، وإشراقات غوته، وسوناتات شكسبير، وتجليات سعدي الشيرازي، وغيرهم من شعراء الإنسانية الكبار وكأنهم جميعا أقباس نفس إنسانية واحدة تنشد الصفاء الأكمل، والنقاء المطلق، والجوهر البعيد عن الزيف والتعصب والافتعال(5).

أما فيما يتعلق بموقف الشعر الجاهلي من قضية التسامح بين أفراد ذلك المجتمع فعلينا الاعتراف بدءاً أن سلوك التباغض والعداء بين أسلافنا في الجاهلية كان قائما بشدة، كانت تغذيه ظروف طبيعية واقتصادية واجتماعية، ألمّت بالأعراب وأجبرتهم على ركوب ذاك المركب الخشن؛ كارهين أو مختارين، فليس للأعرابي للمحافظة على حياته ولتأمين رزقه غير الغزو وقتل الآخر أو نفيه وطرده عمدا:

مستربلي البَغضاءِ بادٍ شنؤهم خُــزرٍ عُيونُهُم عَلَيَّ غضابِ ديوان(6)

ذلك لأن الطبيعة فرضت على العربي أن يكون محارباً غازياً، حرمته خيرات هذه الدنيا وطيبات ما تنبت الأرض. حرمته حكومة تحميه من ظلم أخيه الآخر وتدافع عنه، وحرمته وسائل الدفاع عن النفس ضد الطبيعة القاسية، فجعلته لا يملك شيئا يكنّ إليه في البوادي ليحمي نفسه من الرياح السموم ومن أشعة الشمس القاسية والحيوانات المتوحشة، وجعلته يقابل المرض بمفرده، إذ ليس في البادية طبيب حاذق دارس. فلم يكن أمامه والحالة هذه إلا أن يعلّم نفسه الصبر، وان يصير قاسيا لا يبالي بالنصر أو بالخسارة، بالحياة أو بالموت. إن خسر هذه المرة، حاول تعويض الخسارة بجولة جديدة وهكذا. لأنه إن يئس وجلس واستسلم للزمان، أكله جار له يطمع في ماله مهما كان، فهو لا بد له من استعداد لمنازلة جديدة:

تَأَخَّرتُ أَستَبقي الحَياةَ فَلَم أَجِد لِنَفسي حَياةً مِثلَ أَن أَتَقَدَّما الديوان(7)

لذا عاش العربي قبل الإسلام حياة قائمة في جانب منها على التدافع، وأحاطت بهم أسباب الموت من كل جانب، وأمسى تمجيد القوة شعار الناس، وتكاد سمة ذلك المجتمع تنطبق على سمة ما يقال في عالم السياسة اليوم بعدم وجود صديق دائم ولا عدو دائم . فهم إن تصالحوا تحالفوا ضد عدو وسالت دماء بعضهم دفاعا عن حليفهم، وإذا اختلفوا تقاتلوا ووقعت بينهم الأيام وطمع كل فرد منهم باستئصال خصمه (8) (لمزيد من الأفكار راجع بحثنا الموسوم بـ" جذور إقصاء الآخر في العقل العربي في ضوء الشعر الجاهلي والمرويات التاريخية، ورسالة الماجستير الموسومة بـ " إقصاء الآخر في الشعر الجاهلي".

لكن من جهة أخرى عاش الفرد العربي قبل الإسلام تسامحا فطريا، بمعنى أنه تسامح مع المحيط الطبيعي الذي يعيش فيه، ولم تتولد لديه رغبات التعصب والفوقانية والاستعلاء الرمزي إلا إذا تدخل عامل يخنق ويمنع عنه المساحة

الممنوحة له ، فإن حصل ذلك نراه يتدخل بفعل دفاعي عن ذاته ومكانه وادراكاته المعنوية ليدافع عن الثبات على العالم الذي يعيش فيه ويتنقل به وإليه، من رؤية طبيعية إلى فعل إنساني طبيعي (9)،وأنظر إلى قول شاعرهم:

قَد يَبعَثُ الأَمرَ العَظيمَ صَغيرُهُ حَتّى تَظَلَّ لَهُ الدِماءُ تَصَبَّبُ
وَالظُلمُ فَرَّقَ بَينَ حَيَّي وائِلٍ بَكرٌ تُساقيها المَنايا تَغلِبُ
قَد يورِدُ الظُلمُ المُبَيَّنُ آجِناً مِلحاً يُخالَطُ بِالذُعافِ وَيُقشَبُ
وَالإِثمُ داءٌ لَيسَ يُرجى بُرؤُهُ وَالبِرُّ بُرءٌ لَيسَ فيهِ مَعطَبُ
وَالصِدقُ يَألَفُهُ الكَريمُ المُرتَجى وَالكِذبُ يَألَفَهُ الدَنيءُ الأَخيَبُ
أَدّوا الحُقوقَ تَقِر لَكُم أَعراضُكُم إِنَّ الكَريمَ إِذا يُحَرَّبُ يَغضَبُ (10)

فبصرف النظر عن وجهة نظرنا إزاء نمط ثقافة الجاهليين ومستواها، لكننا نكاد نتفق ـ في ضوء هذا النص ـ على أن عنترة كان يعي تماما أزمة عصره، ويدرك طبيعة الحياة الاجتماعية، فهو حين يحارب، وحين يتعسف إنما يحارب مجبرا، ويتعسف مضطرا فقد "يبعث الأمر العظيم صغيرُه"و قد "يورد الظلم آجنا مِلحاً"، وهكذا فالعربي قبل الإسلام كان واعيا أزمة عصره تماما، ويعرف أنّ آصرة التفاهم الاجتماعي يمكن أن تجد مكانها بين الأفراد فيما لو التزم الأفراد بما يلزمهم الواقع المعيش من حدود "أدّوا الحقوق تقرُّ لكم أعراضكم" يعني تتوفر لكم أعراضكم وتكون محمية مصونة.

من هنا يمكن القول أن الإنسان الجاهلي عاش تسامحا فطريا بالحدود التي توفر له عيشا آمنا وحين تحفظ له حقوقه، أما إذا اعتدي عليه، ووجد نفسه محاطا بالمخاطر والتعسف، فلا يبالي الموت والخطر، ولن يقف مكتوف الأيدي تجاه الخصوم:

أَثني عَلَيَّ بِما عَلِمتِ فَإِنَّني سَمحٌ مُخالَقَتي إِذا لَم أُظلَمِ

وَإذا ظُلِمتُ فَإِنَّ ظُلمِيَ باسِلٌ   مُرٌّ مَذاقَتَهُ كَطَعمِ العَلقَمِ (11)

فالتسامح أصل في سجيته وفي طبعه، لكنه لا يقبل الاستفزاز، فإن اسْتُفِزَّ سيخرج على سجيته وعلى طبعه، لأنه لا يقبل الاستعلاء، ولا يقبل أن يضحي بالمساحة النفسية والاجتماعية الممنوحة له، ولا يصمد أمام أي اختراق.

وإذا ما نظرنا إلى ما في عقولهم نجد التفاهم قائما بينهم يمثله الإيمان بالمصير الموحد، فلطالما وحّدت الشدائد و المصائب لحمة بعضهم، لا سيما تفكيرهم في المواقف المتعلقة بالمصير والوجود:

وراجي أمور جمّة لا ينالها   ستشعبه عنها شعوب لملحد

ووارث مجد لم ينله وماجد   أصاب بمجد طارف غير مُتلد (12)

أو بتلك التي تكون عواقبها قاسية على الجميع دون تمييز:

أرض توارثها شعوب   فكل من حلّها محروب(13)

فالموت العمد وتوافر أسباب المنية، لم تكن حكرا على فرد دون غيره، وليست من نصيب قبيلة أو فئة دون سواها. وحّد الموت المشاع نفسياتهم، وجعل أفقهم واحدا في التفكير بالوجود القلق، فالجاهلي لا يثق بموجودات الطبيعة حوله، فتسامح معها بادراك ، وتسامح بوعي مع تفكير أخيه الآخر، لهذا السبب لم نلحظ تدافعا بين الجاهليين على عبادة صنم أو وثن أو اعتناق دين دون سواه. بمعنى: أن التسامح مع تعدد الديانات والمعبودات كان تسامحا واضحا، فلم نجد احتكاكا بين معتنقي النصرانية وبين معتنقي اليهودية، ولم نجد استهزاء بمن يعبد وثنا معينا على حساب وثن أو صنم أو دين سماوي آخر. وإذا شئت أن أضع سببا لذلك التسامح في الدين فأخال أنه متأت من أن المعبودات كلها والديانات لم ترسِّخ الإيمان في قلب الجاهلي وضميره، ذلك أنها لو ترسّخت لكان

الدفاع عنها شديدا، ولصعب التسامح مع الفكر الذي يتعارض معها، وإننا لنجد الأعمق من هذا فيما ورثناه عنهم، إذ وجدنا شعراء جاهليين تنصّلوا عن الإيمان بمعبودات قبائلهم، وبقوا جزءا معتبرا من القبيلة، فلم يهمشوا، أو يطردوا، أو ينفوا. ويمكن المتقصي أن يذهب أكثر من ذلك ليقول مثلا: أن قبائل عربية عديدة من سكان الحيرة دخلت في المسيحية وعرف هؤلاء باسم العباد، ومن أشهرهم الشاعر عدي بن زيد العبادي. وقد تسامح الملك المنذر الثالث مع انتشار المسيحية في الحيرة بين أتباعه ثم تبعهم في تلك الديانة ملوك الحيرة اللاحقون. وجاء تنصرهم على يد رعيتهم، وأودّ هنا أن ألفت النظر إلى أن دخول ملوك دولة المناذرة كان على يد الرعية، وليس العكس. فأي تسامح وقبول بالآخر نشهده حين نعرف أن ملكا جبارا مثل النعمان بن المنذر يسمع نصيحة أحد الرعايا فيقتنع برأيه؟ وفي هذا السياق نورد قصة تنصر النعمان بن المنذر الذي خرج معه عدي بن زيد العبادي الشاعر، فمروا بشجرة، فقال له عدي:أيها الملك أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: لا.قال:تقول:

ربَّ ركبٍ قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاوزوا الشجرة فمروا بمقبرة، فقال له عدي: أيها الملك أتدري ما تقول هذه المقبرة؟ قال: لا. قال : تقول:

أيها الركب المخبو ن على الأرض المجدون

فكما أنتم كنّا وكما نحن تكونون

فقال النعمان: إن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان. وقد علمت أنك تريد عظتي فما السبيل التي تدرك بها النجاة؟ قال: تدع عبادة الأوثان وتعبد الله وتدين بدين المسيح. قال: أَوَفي هذا النجاة؟ قال: نعم. فتنصر يومئذ(14).

اعترف الجاهليون بوجود الآخر معهم في شتى المواقف؛اعترفوا به شجاعا فمدحوه، واعترفوا به خصما شديدا فأنصفوه، واعترفوا به مهما في وسطهم القبلي فأبَّنُوه ورثوه، واعترفوا به كفءً فحالفوه. في هذه المساحة العريضة من الاعتراف بالآخر وجدتُ مساحة للتسامح تضيق أحيانا حتى أكاد أجدها متلاشية وتتسع حينا لأجدها أوسع من مساحتها الحقيقية.

ففي مواقف القراع وانبعاج الدم يتلاشى فضاء التسامح مع الخصم، لكن مساحة الاعتراف به تتسع لتغطي أي انفعال، ويجد المتلقي نفسه أمام إنصاف وعدالة، يندر أن يمارسها ندٌّ مع نده:

مشينا شطرهم ومشوا إلينا وقلنا اليوم ما تقضى الحقوق
وكم من سيد منا ومنهم بذي الطرفاء منطقه شهيق
فأشبعنا السباع وأشبعوها فراحت كلها تئق يفوق
فابكينا نساءهم وابكوا نساءً ما يسوغ لهن ريق(15)

وفي كثير من مواقف المفاضلة بين الرجال يتخطى الاعتراف مساحته ويتجاوز فضاء التسامح ليكون تنازلا، وبهذا الصدد يروى أن أوس بن حارثة الطائيّ وكان هذا سيداً مقدّماً، وفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هندٍ، فدعا أوساً فقال: أأنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيتَ اللّعن، لو ملّكني حاتمٌ وأولادي ولحمتي لوَهِبْنا في غداة واحدة! ثم دعا حاتماً فقال: أأنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيتَ اللّعن إنّما ذُكِّرْتُ بأوس، ولأحد ولده أفضل منّي(16) .

وفرضت المرأة الجاهلية وجودا معتبرا في أفق التسامح، سواء أكان هذا التسامح في موقف محاولة التصحيح، أم في موقف إثبات الذات. ففي الأول وقفت سُلْمى أم أوس الطائي تُصَحِح تهور ابنها سيد قومه الذي اندفع إلى قتل الشاعر بشر بن أبي خازم، إذ يروى: أن بشراً في هجائه قد ذكر أمّ أوس الطائي فأُتي به أسيرا، فدخل أوسٌ على أمّه فقال: قد أتينا ببشرٍ الهاجي لك ولي فما ترين فيه؟! قالت: أَوَ تطيعني فيه؟ قال: نعم. قالت: أرى أن تردّ عليه ماله وتعفو عنه وتكرمه، وأفعل مثل ذلك. فخرج فقال: إنّ أمّي سعدى التي كنت تهجوها، قد أمرت فيك بكذا وكذا! فقال:

إلى أوس بن حارثة بن لأمٍ ليقضي حاجتي فيمن قضاها

فما وطئ الثّرى مثل ابن سعدى ولا لبس النّعال ولا احتذاها(17)

وكان هذا التصرف على خلاف رغبة ابنها أوس سيد قومه، الذي أدخله في جلد بعير حين سلخه ليجف عليه ويموت. فصححته بموقف التسامح ثم نالت الإعجاب إلى يومنا هذا .(18)

أما في موقف إثبات الذات فذاك نراه مبثوثا في محاولات الشعراء الرجال نيل رضا الحبيبة، حين يجدون منها دلالا وصدودا، ما يدفع بعضهم إلى طلب العفو والصفح، وفي مثل هذا الموقف تقدم امرؤ القيس على الشعراء فكان أميرهم، بقوله:

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

أغرّك مني أن حبك قاتلي وأنّك مهما تأمري القلب يفعل (19)

وما دمنا في موقف طلب العفو والصفح وتجاوز الخطأ فلا بأس علينا من توظيف اعتذارات النابغة من سيده وولي بعض نعمته بوصفها أسلوبا من أساليب إشاعة روح التسامح في المجتمع العربي قبل الإسلام، وإذا شئت فقل أن اعتذارات النابغة فسحت المجال أمام الناس عامة، وأمام الشعراء على وجه الخصوص للاعتراف بالخطأ والإلحاح في عدم العودة إليه، ما يستدعي قبول الاعتذار ومسامحة من قدّمه، كان ذلك كله درسا جديدا من دروس التفاعل الاجتماعي، وخبرة جديدة اكتسبها الناس من وحي الشعر وفاعليته :

ما قلتُ من سيّىءٍ أُتيتَ به إذن فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي

إلاّ مقالة أقوام شُقِيْتُ بها كانت مقالتهم قرعا على الكبدِ

هذا الثناء فإن تسمع به حَسَنَاً فلم أُعَرِّض أبيت اللعن بالصفَدِ

ها إنّ ذي عَذرةً إن لم تكن نفعتْ فإنّ صاحبَها مُشاركُ النكدِ(20)

وفي مواقف البذل والسماحة والعطاء لا نغفل تسامح السيدين الجليلين هرم بن سنان والحارث بن عوف في إنفاقهما على ديات الحرب ودفعها ولو كلفهما الأمر غاليا، فهما الشخصيتان الجليلتان اللتان وقفتا بوجه الحرب فأتلفا مالهما لرأب الصدع الحاصل في جزيرة العرب بسبب حرب داحس والغبراء، زد على ذلك فإن زهير بن أبي سُلْمى فاض عليهما مدائح خلدت ذكرهما دون انتظار طائل من وراء ذلك، سوى إعجابه بسماحتهما

وبكريم أخلاقهما، وهكذا فطيب أخلاق الرجلين السمحين الكريمين أنتج لنا شعرا معبرا عن تلك الفضيلة، فجاءنا موقف متسامح وشعر مشيدا بذلك التسامح:

يمينا لنعم السيدان وُجِدتُما على كل حالٍ من سحيل ومبرمِ
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر مَنْشَمِ
وقد قلتما إن ندركِ السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلمِ
فأصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوقٍ ومأْثمِ
عظيمين في عُليا معدٍّ هُدِيتما ومن يستبح كنزا من المجدِ يَعْظُمِ(21)

لكن الأجواد الجاهليين تباهوا بالمواسم التي يتلفون فيها أموالهم فيجودون بسخاء، فلا يبخلون ولا تكون نفوسهم شحيحة على أبناء جلدتهم، فكان تسامحهم في خصيصة الكرم تسامحا مشهودا حتى بالغت الأمة في هذا الأمر وغدا شعيرة شبه مقدسة، ثم أفرطوا فيه، فجعلوا شهور القحط والجدب حين يملأ الفقر ساحات الناس أفضل مستوياته، وأكثرها نبلا وشرفا، حتى امتلأت بطون دواوين الشعراء الجاهليين إشادة بتلك الممارسات. يقول طرفة بن العبد:

إِنّي مِنَ القَومِ الَّذينَ إِذا أَزِمَ الشِتاءُ وَدوخِلَت حُجَرُه
يَوماً وَدونِيَتِ البُيوتُ لَهُ فَثَنى قُبَيلَ رَبيعِهِم قِرَرُه
رَفَعوا المَنيحَ وَكانَ رِزقَهُمُ في المُنقِياتِ يُقيمُهُ يَسَرُه
شَرطاً قَويماً لَيسَ يَحبِسُهُ لَمّا تَتابَعَ وِجهَةً عُسُرُه
تَلقى الجِفانَ بِكُلِّ صادِقَةٍ ثُمَّت تُرَدَّدُ بَينَهُم حِيَرُه
وَتَرى الجِفانَ لَدى مَجالِسِنا مُتَحَيَّراتٍ بَينَهُم سُؤُرُه
إِنّا لَنَعلَمُ أَن سَيُدرِكُنا غَيثٌ يُصيبُ سَوامَنا مَطَرُه
نَعفو كَما تَعفو الجِيادُ عَلى الـ عِلّاتِ وَالمَخذولُ لا نَذَرُه
إِن غابَ عَنهُ الأَقرَبونَ وَلَم يُصبَح بِرَيّقِ مائِهِ شَجَرُه
إِنَّ التَبالِيَ في الحَياةِ وَلا يُغني نَوائِبَ ماجِدٍ عُذَرُه
كُلُّ اِمرِئٍ فيما أَلَمَّ بِهِ يَوماً يَبينُ مِنَ الغِنى فُقُرُه(22)

الحق أن هيمنة الشعر على نفوس العرب قبل الإسلام كانت هيمنة قوية، وكانت سطوة ما يذاع في الشعر سطوة ملأت آفاق جزيرة العرب شرقيها وغربيها، فلا عجب

والحالة هذه أن يجد الدارس صدى ما تفوه به الشعراء وما أنشدوه وما أعلنوه وما نادوا به يطوق الآفاق، لذلك انتشرت ثقافة التسامح بين الناس، وترددت على ألسنة الشعراء مضامينه، نقرأ ذلك في مثل قول أحدهم:

لكن قومي وإن كانوا ذوي حسب ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل الود إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا(23)

وفي قول آخر:

فلئن عفوتُ لأعفونْ جللا ولئن سطوت لأوهنَنْ عظمي
قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميت أصابني سهمي(24)

وفي قول ثالث:

يا عمرو لو لنت لي ألفيتني يَسَراً سمحاً كريماً أجازي من يجازيني(25)

وفي قول رابع:

إنّي اِمرُؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِدٌ لا أُتبِعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها(26)

وأضحت أساليب الشعراء تزداد وتتكاثر وتتوالد وتتنوع في إشاعة جو التسامح كلما صار الزمن قريبا من وقت بزوغ فجر الإسلام. ولا أغالي إذا كتبت هنا أن ثقافة التسامح والوعي بأهمية انتشاره كانت محفزا مهما من محفزات ظهور الأحلاف ونصرة المظلومين، ويأتي حلف الفضول تتويجا لذلك الإحساس الثقافي الذي شاع بين الناس.

ويقال في سبب هذا الحلف: إن رجلًا غريبا قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه أهل الفضل في مكة ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته:

ببطن مكة نائي الدار والنفر يا آل فهر لمظلوم بضاعته
يا للرجال وبين الحجر والحجرِ ومحرم أشعث لم يقض عمرته
ولا حرام لثوب الفاجر الغدِرِ إنّ الحرامَ لمن تمّت كرامته

فخذله فريق ونصره فريق آخر، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مَتْرَك، وأنشد:

وإن كنا جميعا أهل دار حلفت لنعقدنْ حلفا علينا

يقرّ به الغريب لذي الجوار نسميه الفضول إذا عقدنا

حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول، فعقدوا الحلف ثم قاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الغريب. فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لى به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت)(27). وكان حلف الفضول مسبوقا بحلف أقدم منه زمنا هو حلف المطيبين، وسببه أن فريقًا من قريش أجمعوا على أن يأخذوا من بني عبد الدار الحجابة – أي شرف خدمة الكعبة –واللواء – أي شرف حمل اللواء في الحروب –، والسقاية – أي شرف سقي الماء للحجيج، فهذه المكرمات الثلاثة لم تجتمع في أي عائلة من عائلات العرب، فحقد عليهم الحاقدون، ومشوا في نزع هذا الشرف وتقسيمه، فتفرقت عند ذلك قريش، واختلفت الآراء، فاستنصر بنو عبد الدار أصحاب النخوة، فاجتمع أنصار بني عبد الدار، فأخرج بنو عبد مناف قصعة مملوءة طيبًا. ثم غمس الحضور أيديهم فيها ، فتعاقدوا وتعاهدوا، على نصرة بني عبد الدار والمظلومين من بعدهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين(28).

الهوامش والتعليقات